جبهة المسيحيين الوطنيين :

بعد فيتنام ... مشاريع الوصاية والتحجيم والتصفية تتزاحم على بوابة الشرق الاوسط

بعد هزيمة الولايات المتحدة الاميركية في فيتنام ، وما تبعها في ارتفاع حرارة التحركات الدولية وخاصة الاميركية الكيسنجرية ، توقع المراقبون السياسيون بصورة عامة والعرب منهم بصورة خاصة ان تكون الجولة التالية الساخنة مباشرة في الشرق الاوسط ، بعضهم توجه انتباهه الى الحدود العراقية الايرانية وراهن على تطور قضية الاكراد بالذات في شمال العراق ، والبعض الاخر راهن على جولات في امارات الخليج تعوض احتلال الوفاق الدولي على حدود الصين الشعبية بمزيد من الهيمنة الجغرافية والسياسية في الخليج باتجاه مصادر النفط .

ـ ولكن قسما من المراقبين كان يرى ان التحركات الاميركية تتجه نحو تحقيق صدمة اعم واشمل للطرف السوفياتي في منطقة الشرق الاوسط وبالتالي تحريك الوضع العربي الاسرائيلي . وقد تعهد كيسنجر هذا المشروع الجديد .

كانت هزيمة ١٩٦٧ تشكل حاجزا نفسيا اساسيا بين الدول العربية بانظمتها المنهزمة في حربها مع اسرائيل وبين الولايات المتحدة التي يضنفها العرب عدوة اولى في حروبهم المستمرة مع الدولة الصهيونية . ولم يكن الرأي العام العربي قابلا لاي مفاوضات او صلح او اعتراف بالكيان الصهيوني . ومن هنا جاء مؤتمر الخرطوم معبرا عن تطلعات الرأي العام العربي .

ولكن الدبلوماسية الاميركية والعربية التي باتت مهيأة لشيء ما يخالف روح التوجه العام العربي والتي عبر عن بداياتها مشروع روجرز راحت تتحرك من اجل الوصول الى هدف يناقض المواقف التي يصر الرأي العام على اعلانها وممارستها تجاه الصهيونية والسياسة الاميركية .

فكانت انتصارات تشرين التي ادت الى ظهور النظام المصري والسوري بمظهر المنتصر العسكري الذي بامكانه ان يجلس الى طاولة المفاوضات من اجل تحقيق الشروط السياسية المناسبة للعرب.

وسرعان ما تلقف كيسنجر هذا الانتصار وأوهم الدنيا كلها بأنه يساعد على تحقيق المكاسب السياسية العربية عبر مفاوضاته المكوكية بين مصر وسوريا والسعودية والاردن من جهة واسرائيل من جهة ثانية .

هذا التحرك الاميركي العربي ادى الى تغييب السياسة السوفياتية شكلا واساسا . وقد ادى الى استغناء مصر عن الخبراء السوفيات والغاء معاهدة الصداقة مع مصر كما ادى الى اتفاقية سيناء التي حاول السوفيات ان يدخلوا منها لتحويل التنافس المصري السوري الى صراع بين الرأي العام العربي ومصر وراح اصدقاء السوفيات في المنطقة يبرزون خطر اتفاقية سيناء ويكتلون الانظمة العربية في خانة جديدة . اتفاقية سيناء من جهة واعداء هذه الاتفاقية من جهة ثانية .

للوهلة الاولى ظن السوفيات انهم نجحوا وان انظمة الحكم في العراق وسوريا وليبيا على الاقل قد مالت الى جانبهم في الصراع العربي المتمحور يومها حول اتفاقية سيناء ، بالاضافة الى المقاومة الفلسطينية التي ادى موقفها الى تجميع الدول العربية الاخرى الى جانب خصوم اتفاقية سيناء ولو ظاهريا .

هذم المعادلة الجديدة ، اوجدت نقاطا ساخنة كثيرة في منطقة الشرق الاوسط فتركز الجهد بشكل اساسي على الجبهة الشرقية حيث كانت الغلبة الظاهرة لاعداء اتفاقية سيناء : سوريا والمقاومة الفلسطينية وفي هذا المحور نظامان صوتيان للسياسة الاميركية المصرية هما الاردن ولبنان .

وقد توقع المراقبون ان تتجه انظار القوى الرافضة لاتفاقية سيناء الى تدعيم الجبهة الشرقية وقيام حركة تلتف على النظام الاردني الصديق للاميركان بحيث يرد خصوم سيناء الصفعة في الاردن ولكن المفاجأة الاميركية كانت قد جهزت مشروع الخطوة التالية فأوقدت الحرب اللبنانية الفلسطينية بعد ان هيئت لها ادوات محلية افضل مما كان لديها ١٩٧٣ يوم باشر الجيش اللبناني ضرب المخيمات .

وكان المشروع الاميركي يستهدف اتمام الحزام الامني حول اسرائيل ولم تبقى في وجهه سوى الحدود السورية واللبنانية خارج نطاق المراقبة الفعلية والضبط العام للقوى الداخلية في لعبة الحل الاميركي .

ولما كانت مشاريع المفاوضات السورية الاميركية بعد سيناء تمر بأزمة ثقة وتعاون . فلم يبقى سوى ضرب التيار الرافض المتنامي في لبنان تسهيلا لنجاح المفاوضات الاميركية السورية بالاضافة الى ان ضرب هذا التيار هو هدف مستقل بذاته ، ويؤدي الى استمرار روح سيناء التي تهدف الى عزل التيار الشيوعي في الوطن العربي واخراج السوفيات منه مثلما خرج الاميركيون من الفيتنام .

■■ المشروع الاسرائيلي

طبعا كانت اسرائيل تسعى للرد على العمليات الفدائية الناجحة التي نمت في سنوات ما بعد حرب تشرين وخاصة ما بعد سيناء ، ويبدو انها اختارت اسلوبا مختلفا عن الرد المباشر بأدواتها المكشوفة . ومن هذا المنطق الجديد الذي اعلنه المسؤولون الاسرائيليون انسجم المشروع الاسرائيلي الرامي الى ضرب المقاومة الفلسطينية لاستمرار هيمنة اسرائيل على الضفة الغربية وسيناء مباشرة واما بواسطة عملاء متعاونين معها .

فاذا كان للاميركان ادوات في لبنان تمثل في عناصر لبنانية منتظمة في صفوف رسمية (مؤسسات غير مدنية) اوتختزق تجمعات سياسية يمينية ، فقد كان لاسرائيل عملاء ايضا بامكانهم ممارسة القنص والتفجير والتمركز في داخل الجهة التي هي اصلا مجهزة لان تكون هكذا منقسمة منذ عهد الميثاق الوطني ١٩٤٣ .

■■ المشروع السوفياتي ـ السوري

مقابل ما تقدم كان طبيعيا ان يتشبث الاتحاد السوفياتي بموقفه الصلب محاولا استغلال التناقضات العربية التي فجرتها اتفاقية سيناء الى ابعد الحدود . فبادر السوفيات الى تدعيم مواقف الرافضين لاتفاقية سيناء محاولين استغلال التيار الشعبي العارم من اجل المشروع الروسي في الشمال الى المنطقة العربية وعهد ازدهار العلاقات الروسية العربية وكانت الادوات المتوفرة للسوفيات هي القوى العقائدية بالاضافة الى النظام السوري الذي يلتقي مع السوفيات بسبب وحدة الخصومة لاتفاقية سيناء .

هذه هي المشاريع التي كانت تتزاحم على بوابة فلسطين يوم توزعت بعض الاطراف اللبنانية والفلسطينية والعربية ادوارا صغيرة تصب جميعها في صراع المشاريع الكبرى .

■■ الادوار الصغيرة

وهكذا برزت جبهة سورية ، فلسطينية ، سوفياتية موحدة الموقف ظاهرا ومختلفة الاهداف صلا في وجه التحرك الاميركي المصري ـ الاسرائيلي المتفق ظاهرا والمختلف في تفاصيل التحرك اذ لكل واحد منهم مشروعه المستقل .

ولم يبقى نظام عربي واحد بعيد عن هاتين الجبهتين فانقسم العرب كل العرب الى فريقين .

وفجرت المخابرات الاميركية والمتعاونة معها الحرب على الساحة اللبنانية وهكذا كسبت المعركة الاولى في تحديد ساحة الصراع .

وسرعان ما التحم كل الفرقاء المتصارعين في معركة مباشرة وغير مباشرة على الساحة اللبنانية ولم تكن الحجة لتعوز اي فريق من المتنازعين المباشرين لبنانيين وفلسطينيين لبذل التضحيات الجسام وبذل الارواح رخيصة فداء للاهداف الكبيرة التي تخيلوها .

فالكتائب اللبنانية ، بأدواتها البدائية ، اولا والتي تطورت مع المعارك ، تدافع عن السيادة اللبنانية ، ثم تحاول منع « التيار الهمجي » من احتلال لبنان . وقد « تأكد » لها ان الفلسطينيين يرغبون باحتلال لبنان بديلا عن فلسطين ، وان اليسار اللبناني ينفذ خطة الوصول الى السلطة وقلب نظام الحكم . وقد اقنع الكتائبيون انفسهم بهذا المنطق واقنعوا سواهم فكانت الجبهة التي دعيت فيما بعد « الجبهة اللبنانية » . او جبهة الدفاع .

والفلسطينيون ، بأدواتهم الحربية المتطورة نسبيا شعروا بأن المعركة التي يخوضونها في لبنان هي معركة حياة او موت ، ولفترة ظنت القواعد الفلسطينية انها لن تنتصر في هذه الحرب الحاسمة الا اذا قضت نهائيا على ادواتها اللبنانية مباشرة .

وكانت الاحزاب اللبنانية الاخرى التي شكلت فيما بعد المجلس السياسي للحركة الوطنية ، تشعر ان الحرب هي ضد الفلسطينيين حتى مرحلة متقدمة عندما بدأت تشعر ان ما يجري على الساحة يستهدفها ايضا خاصة كلما تطور الصراع وانكشف الدور السعودي الاميركي .

من هنا كثرت التناقضات التي لا يمكن اعطاؤها تفسيرا واحدا مقنعا .

ففي ايام الحرب الاولى ، كانت المقاومة تكثف الاجتماعات بكميل شمعون ، وتصر على عزل الكتائب اللبنانية ، وهكذا فعلت ايضا الاحزاب الوطنية .

والفلسطينيون ، واليساريون كانوا يطلبون وينشدون مساندة السوريين ، وترفض الكتائب مثل هذا الطلب وتصر على المبادرة العربية الشاملة .

ثم تنقلب الادوار فالكتائب ارحم من شمعون والعرب افضل من السوريين بالنسبة للفلسطينيين والعكس هو مطلب وموقف الكتائب وجبهة الكفور .

هذه البهلوانية تبقى لغزا من الغاز الحرب اللبنانية التي لن تكشفها الا الايام القادمة والحلول النهائية التي ستسفر عليها هذه الحرب .

■■ ملامح الحل الاتي

وبعد ان استمر الصراع طويلا دون حسم وبعد ان عجز كل فريق عن تحقيق مشروعه الخاص المستقل ، فلا حلفاء اميركا في لبنان استطاعوا ان يحققوا نصرا عسكريا يوفر المناخ لمتابعة المشروع الاميركي باقصاء منظمة التحرير عن شرعيتها الوحيدة في تمثيل الشعب الفلسطيني ونقل هذا الحق للملكة الهاشمية . ولا المخابرات الاسرائيلية والدعم المباشر وغير المباشر للقوميين اللبنانيين استطاع ان يؤدي الى طرد كل الفلسطينيين من لبنان . ولا التدخل السوري ، في وجهيه المناصر للمقاومة او المعادي لها استطاع ان يحجم القوى اللبنانية والفلسطينية المتحالفة ليضعها في رصيده الخاص المفاوض على مغانم الحل الشامل . ولا اليسار اللبناني وحلفاؤه استطاعوا ان يخرجوا عن دور التصدي لمنع المؤامرة والانتقال الى المرحلة التالية التي برقت في فترة ما من الاحداث قبل انقلاب الدعم السوري الى التصدي لحلفاء الامس .

وهكذا وقف جميع الفرقاء اصحاب المشاريع واصحاب الادوار الصغيرة امام استحالة الانتصار الحاسم وانهار كل شيء على الساحة اللبنانية وتبدلت وتغيرت التحالفات حتى افرزت حلا يجمع الى ملامح المشروع الاميركي المستقل بعض التعديلات العربية التي لا يختلف على مضمونها اصدقاء اتفاقية سيناء واعداؤها .

فأعيد لسوريا حقها في مشاركة مصر وتعدل الاصرار الاميركي على تمثيل الفلسطينيين وقبلت اميركا مشاركة الروس في مؤتمر شامل في جنيف بعيدا عن خطوات كيسنجر الذي سقط في تجربة امتحان الاميركيين فاستسلم اصحاب المشاريع اللبنانية الجنوبية بانتظار التطورات وسلمت هذا اسرائيل يبحث عن قوى جديدة ، وشكل اخر لاهثا وراء مراهقات لم تعد تلاقي من يرغب فيها . ذلك لان العمالقة قرروا ان يجمدوا الحرب لاتمام صياغة مشروع السلام الذي يرغب في [illegible]

المؤتمر التأسيسي الاول لجبهة المسيحيين الوطنيين